

اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني : قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة

✍ : محمد ياسر الهلالي

يعد تحليل النصوص التاريخية الصرفة، وغيرها من نصوص أجناس أخرى كالنصوص المنقبية، بمثابة مختبر للمؤرخ، يعرض فيه الحدث على مجهر التدقيق والتحصيص، في أفق إعادة كتابة التاريخ وفق قراءة منهجية متأنية من شأنها المساعدة على تكوين رؤية « جديدة »، وبالتالي الدفع بالبحث التاريخي ولو خطوة متواضعة إلى الأمام، إيماناً بأنه ليس ثمة « تقدم في كتابة التاريخ، وإنما يحصل التقدم في نقد النصوص واختيار الموضوعات »¹.

من هذا المنطلق، يمكن القول إن إعادة كتابة التاريخ، لا تقتضي البحث فقط عن وثائق جديدة، لاسيما إذا علمنا طبيعة الذهنية التي كتبت بها المصادر المغربية الوسيطية عموماً، بقدر ما تتطلب أيضاً قراءة المتوفر منها قراءات متعددة اعتباراً لتطور أدوات البحث، واحترام خصوصية كل جنس منها. ولعل هذا ما يفسر دعوة "فرناند بروديل" (Fernand BRAUDEL) لكتابة التاريخ بشكل يومي ودائم.

فإلى أي حد يمكن بلورة هذا الرأي في قراءة ما أسميته بـ « حادثة المنصورة » التي أفضت إلى مصرع السلطان المريني يوسف بن يعقوب بن عبد الحق² ضحى يوم الأربعاء تاسع ذي القعدة عام 706 هـ / 13 مايو 1307 م عن سن السادسة والستين من عمره ؟

يستحسن قبل الإجابة عن هذا السؤال، تصدير هذا البحث بالملاحظات الأولية الآتية :

_ نشر ضمن "التاريخ والفقهاء، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني"، إنجاز الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، تنسيق، محمد حجي، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادال - الرباط، 2002 م. (ص، 229-259).

1- المقولة لـ "بول فيين" (Paul VEYNE) نقلاً عن عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، الجزء الأول : الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1992 م، ص، 196.

2- للتعرف أكثر على أخبار عهد هذا السلطان، أنظر : علي بن محمد بن أحمد بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 م، ص، 374-388.

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة المرينية، الجزء الثالث، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954 م، ص، 80-91.

بما أن الموضوع يتعلق بحادثة اغتيال³ سلطان مريني، فإن ما يسترعي الانتباه هو كثرة الاغتيالات التي لحقت بسلاطين بني مرين⁴. وهذه حقا ظاهرة لها أكثر من دلالة، وتستحق أكثر من وقفة، لكن لا يسع المجال الآن للنش في حيثياتها وخلفياتها. ما يهم بالنسبة لهذا الموضوع، هو محاولة الحفر في مسببات اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب، وإن كان اغتياله على يد أحد خدامه، لم يكن الأول من نوعه في تاريخ الأسرة المرينية، إذ سبق أن اغتيل أبو سعيد بن عبد الحق في خبائه من قبل علج له عام 638 هـ/ 1240 م⁵، كما لم يكن الأخير في تاريخها، فقد قتل السلطان المريني أبو سعيد الثالث سنة 823 هـ/ 1420 م على يد أحد كتابه⁶.

تتعلق الملاحظة الثانية بالمصادر التي تم اعتمادها لمحاولة إعادة قراءة « حادثة المنصورة »، حيث يمكن تقسيمها من الناحية الكرونولوجية إلى مصادر معاصرة للحادث، وأخرى قريبة من تاريخ حدوثه⁷، وثالثة نقلت عن الأولى⁸، لكنها لا تخلو من فائدة،

3- « الاغتيال من الجذر الثلاثي ع و ل الذي يفيد الهلاك، وصياغته على زنة افتعال تفيد الطلب، أي بما ينطوي على العمد والقصد. فالاغتيال هو إرادة الغول الهلاك للأخر، وبهذا المعنى يفيد القتل العمد. (...) يرادف الاغتيال كلمة أخرى هي الفتك، التي تتضمن معنى مزدوجا : القتل عمدا. (...) المعنى الثاني، هو القتل على غرة. (...) وميز اللغويون الاغتيال عن الفتك، فالاغتيال إذا قتله من حيث لا يعلم، والفتك إذا قتله من حيث يراه وهو غار (غافل) غير مستعد. وتدخل الحالتان في حالة الغدر ».

هادي علوي، الاغتيال السياسي في الإسلام، مجلة دراسات عربية، العدد 4، فبراير 1985 م، ص، 111-112.
4- يشير الإحصاء الذي قمت به انطلاقا من المصادر التاريخية إلى اغتيال إثني عشر سلطانا مرينيا، وخلع تسعة، ثلاثة منهم قتلوا بعد خلعهم، وسبعة منهم فقط توفوا بشكل طبيعي من بين مجموع السلاطين البالغ عددهم ثمانية وعشرين سلطانا، وهو ما يعطي النسب المئوية الآتية : 54 % قتلوا، و 21 % خلعوا دون قتل، و 25 % توفوا بشكل طبيعي.

وتجدر الإشارة إلى أن الرقيق لم يكونوا بمنأى عن الاغتيال السياسي في معظم البلاطات المغربية والأندلسية. ويكاد يكون تكليفهم بمهمة الاغتيالات السياسية أمرا شائعا ومألوف. وذلك بحكم قربهم من الأمير أو القائد المستهدف. عبد الإله بنمليح، الرق في المغرب والأندلس خلال القرنين 5-6 هـ/ 11-12 م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس - ظهر المهرز، السنة الجامعية، 1999-2000 م، ص، 82، 85. وانظر أيضا ص، 459-462 من الأطروحة عن الاغتيالات السياسية التي شارك فيها الرقيق.

5- محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن، دراسة وتحقيق، ماريّا خيسوس بيجيرا، تقديم، محمود بوعيايد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401 هـ/ 1981 م، ص، 112.

أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأحمر الغرناطي الأندلسي، روضة النسر في دولة بني مرين، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1411 هـ/ 1991 م، ص، 25، هـ، 16.

6- الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983 م، ص، 318.

7- أبو عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، رحلة التجاني، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981 م. أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، القسم الأول والثاني، تقديم وتحقيق وتعليق، محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية، 1984 م. ابن أبي زرع، روض القرطاس. شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر، ممالك إفريقيا ما وراء الصحراء، وممالك إفريقيا وتلمسان وجبال البربر وبر العدو والأندلس، تحقيق وتعليق، مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1409 هـ/ 1988 م. أبو عبد الله محمد بن عبد الله لسان الدين بن الخطيب السلماي، الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الرابع، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1397 هـ/ 1977 م. ابن الخطيب، رقم الحل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316 م. ابن الخطيب، شرح رقم الحل في نظم الدول، أعده للطبع وعلق عليه وقدم له، عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1990 م. أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء السابع، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل الزكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1401 هـ/ 1981 م.

.../...

.../...

لإضافتها أحيانا معلومات يجهل مصدر بعضها، حسب علمي، هل هو كتابي أم شفوي؟ كما يمكن تقسيم هذه المصادر من الناحية المجالية، ومن ناحية الولاء إلى مغربية - مرينية، وأخرى تلمسانية - زيانية⁹ لا من حيث طبيعة الرواية التي تعاطفت كل واحدة منها مع طرف ضد الآخر، ولكن اعتبارا أيضا لما شهده القرن الثامن هـ/ XIV م من معالم تشكل الحدود بين سلطة حاكمة للمغرب الأقصى، وأخرى للمغرب الأوسط.

وإذا كانت كل هذه المصادر اتفقت حول سنة وقوع الحادثة ونتيجتها، ونسبت الاغتيال إلى أحد العبيد الخصيان أو أحد فتياته حسب تعبير آخر¹⁰، باستثناء قلة منها¹¹، فإنها اختلفت في سرد تفاصيلها والدوافع التي كانت وراءها، انطلاقا من الوضعية التي كان عليها السلطان عند اغتياله¹²، وهو اختلاف له أهميته كما سيظهر لاحقا.

تهم الملاحظة الثالثة، هي الأخرى، قسما من المادة المصدرية المعتمدة، فعكس ما هو شائع عن الإسطوغرافيا التقليدية من إطنابها وتفصيلها في الغالب للأحداث السياسية

ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل الزكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1401 هـ/ 1981 م. أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب بن قنفذ القسطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، اعتنى بنشره وتصحيحه، محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965 م. ابن الأحمر، روضة النسرین. شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الجزء الخامس، حققه وقدم له ووضع فهارسه، محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1358 هـ/ 1981 م.

8- محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من الدر والعقيان في شرف بني زيان، حققه وعلق عليه، محمود بوعيد، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1405 هـ/ 1985 م. أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، الجزء الخامس، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401 هـ/ 1981 م. أحمد بن أحمد بن أحمد بابا التنبكتي السوداني، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه، طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، 1398 من وفاة الرسول/ 1989 م، ص، 242. الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983 م. أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف الملبتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله، محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326 هـ/ 1908 م. أبو العباس أحمد بن أحمد بن أبي العافية بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الجزء الثاني، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1974 م. الناصري، الاستقصا، ج 3.

9- سأكتفي هنا بذكر الروايات الزيانية أو التي بدا تعاطفها مع الزيانيين واضحا، وبالتالي ستوضح تلقائيا الروايات المغربية. أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، نشره، ألفرد بيل (Alfred BEL)، مطبعة بيبير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1332 هـ/ 1904 م. التنسي، تاريخ بني زيان. الوزان، وصف إفريقيا، ج 2. وتصنيف الوزان مع هذه المصادر، راجع للنفحة الزيانية في روايته كما سيوضح لاحقا.

10- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 8، القسم 1، ص، 69. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 388. التجاني، رحلة التجاني، ص، 197، 220. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص، 357. ابن الخطيب، رقم الحلل، ص، 90. ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص، 270-271. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 129، 307-308. ابن خلدون، التعريف، ص، 517. (ويرجع ابن خلدون في التعريف تاريخ اغتياله إلى عام 705 هـ، ولعله خطأ في النسخ، لأنه ذكر في العبر أن الاغتيال تم عام 706 هـ). يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص، 123-124. التنسي، تاريخ بني زيان، ص، 133. الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص، 17-18. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 2، ص، 471.

11- العمري، مسالك الأبصار، ص، 135. ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70. ابن الأحمر، روضة النسرین، ص، 30-31. الونشريسي، المعيار، ج 5، ص، 117.

12- ذهب البعض إلى أنه كان نائما عندما تم اغتياله. ابن الأحمر، روضة النسرین، ص، 30-31، هـ، 26. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 2، ص، 471. بينما ذهب ابن الخطيب إلى أن السلطان كان ساعتها مبتذلا « بين نساء قصره، فضربه ضربة خرقت معدته ». شرح رقم الحلل، ص، 270-271. وانفرد الناصري بالرواية الآتية: « عمد العبد إلى السلطان وهو في بعض حجر قصره، فاستأذن عليه فأذن له، فألفاه مستلقيا على فراشه مختضبا بحناء، فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاه ». الاستقصا، ج 3، ص، 85.

والعسكرية، انسجاما مع طبيعة مواضيعها المرتبطة بكل ما هو متعلق بالسلطة، فإن إشارتها إلى « **حادثة المنصورة** » جاءت في الغالب مقتضبة، لم تتعد في أحسن الأحوال خمسة أو ستة أسطر. ولعل السبب في ذلك راجع إلى كون الاغتيال يعد حادثا غير « سعيد » بالنسبة للسلطة من جهة، إن صح التعبير، وهو أمر داخلي لا ينبغي للمجتمع أن يعرف منه أكثر من خبر الحادث نفسه من جهة أخرى. وفي هذا السياق، يمكن فهم تقليل المصادر المغربية من وقع هذا الاغتيال، حيث عمدت إلى تغطيته بصبغة أخلاقية - سلوكية للخصي الذي نفذ عملية الاغتيال؛ فنعتة ابن خلدون بـ « **الجهل والغباوة** »¹³، ووصفه ابن الخطيب بأنه من « **أخابث الخصيان** »¹⁴، وجاء الوزن في مرحلة لاحقة ليتم هذا الاتجاه من الكتابة، وليتهم الخصي بالجنون عند تنفيذه لعملية الاغتيال¹⁵ !

في ظل هذا التقييم الأولي لمصادر « **حادثة المنصورة** »، وقصد الخروج بفكرة شاملة عنها، وفهم ملابساتها، لا محيد عن قراءة مصادرها مجتمعة بصورة تركيبية، في ظل احترام سياق موضوعها، مع محاولة وضعها في إطار تاريخي أشمل قد يتجاوز الحادثة نفسها للتنقيب عن جوانبها خدمة للفهم الموضوعي ما أمكن، مما يدفع أولا إلى التطرق ولو بشكل استعجالي للظروف التي تمت فيها الحادثة ألا وهي حصار تلمسان.

كانت السلطة المرينية حثيثة السعي إلى كسب مزيد من المشروعية عبر العديد من السبل، فوجدت في استقطاب بعض الصوفية أحد هذه السبل. ورغم فشل مشروعها الداعي إلى احتواء هؤلاء، فإنها استمرت ولو ظاهريا في الترويج لسياسة تقريبيهم وتقديرهم¹⁶؛ كإشهار إيمانها ببركتهم، وكرامات الأحياء منهم والأموات، واستيهاب الدعاء منهم، حتى أصبح من البديهيات بالنسبة للسلطان المريني، حسب رأي البعض، التمكن من أخذ تلمسان، وخصوصا قرية العباد حيث مدفن سيدي أبو مدين¹⁷، أحد الرموز الأساسية في عالم الصوفية.

وبغض النظر عن هذه السياسة الاستقطابية، فإنه لم يعد خافيا أن السلطة المرينية لقيت منافسة شديدة من قبل السلطة العبودادية من أجل مراقبة الطرق التجارية، وزعامة المنطقة في إطار الربط التجاري بين السودان وأوربا الجنوبية الغربية، لاسيما أن

13- ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 308.

14- ابن الخطيب، رقم الحل، ص، 90. ابن الخطيب، شرح رقم الحل، ص، 270. وذهب الناصري في مرحلة متأخرة إلى النعت نفسه تقريبا : « **الخصي الخبيث ذو النفس الشيطانية** ». الاستقصا، ج 3، ص، 85.

15- الوزن، وصف إفريقيًا، ج 2، ص، 17-18.

16- علي بن محمد بن أحمد بن أبي زرع الفاسي [؟]، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 م، ص، 13. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 278. ابن مرزوق، المسند، ص، 122. إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990 م، ص، 219-220. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي، كتاب السلسل العذب والمنهل الأمل، تحقيق، محمد الفاسي، مجلة المخطوطات العربية، القاهرة، الجزء الأول، المجلد العاشر، 1964 م، ص، 39.

17- Jean. BRIGNON et autres, **Histoire du Maroc**, Librairie Nationale, Casablanca, 1967, p. 136.

وبنى أبو الحسن المريني مسجدا بمحل ضريح أبي مدين شعيب بن الحسن، ولون قبلته وذهبها، واحتفل فيها الاحتفال المناسب. الونشريسي، المعيار، ج 2، ص، 461.

موارد التجارة البعيدة المدى كانت تمثل إحدى أبرز مصادر قوة السلطتين معا¹⁸. وأهلت عدة عوامل سلطة المغرب الأوسط لمنافسة نظيرتها في المغرب الأقصى تجاريا، من ذلك استفادتها من وجود عاصمتها تلمسان في موقع تجاري مهم بين بلاد التبر والمنطقة الأوربية المشار إليها، جعلها تستفيد من « دخول البضائع وخروجها »¹⁹، مستندة إلى ميناء هنين القريب منها، والذي كانت تصرف منه المواد المجلوبة من السودان إلى أوربا الجنوبية الغربية بسهولة بالغة²⁰.

لم تقف المنافسة العبودية عند هذا الحد، بل طمحت في مرات عديدة للسيطرة على سجلماسة، باعتبارها أهم محطة تجارية استراتيجية على الطريق المؤدي إلى بلاد السودان، تمكن المسيطر عليها من تبوء الزعامة كوسيط تجاري بين هذا الأخير وجنوب أوربا الغربية. ويمكن الإشارة بهذا الصدد إلى سيطرة يغمراسن على سجلماسة عام 661-662 هـ / 1262 م، إلى أن عادت إلى إيالة بني مرين في صفر عام 673 هـ / 1274 م²¹. وساعد السلطة الزيانية على هذا التوجه، وجود القبائل المعقلية في هذه المنطقة التي كانت تقلق وجود المرينيين في الجنوب المغربي²². لذلك، سعت السلطة الزيانية إلى التقرب من هذه القبائل، مما أسفر خلال القرن الثامن هـ / XIV م عن فقدان طريق سجلماسة - تغازة - ولآة ثم تنبكتو وغاو لأهميته بفعل هجمات القبائل المعقلية²³. كما أن تحركات القبائل البدوية الحسانية من سوس نحو الشرق والجنوب وتهجماتها على التجار، أسهمت هي الأخرى بصورة فعالة في إبعاد قوافل تجارة السودان، وتحويل الطرق عن سجلماسة إلى شرقها في اتجاه توات وتحديدًا في اتجاه تمنطيت²⁴. وبذلك، فقد طريق نول لمطة - سجلماسة - أوداغشت أهميته، بعد أن كان يعتبر من أهم الطرق التجارية الصحراوية منذ القرن الثالث هـ / IX م إلى القرن الثامن هـ / XIV م²⁵. ونتيجة لهذا التحول، صارت كل دول شمال إفريقيا وخاصة الزيانية، تستفيد من التجارة مع بلاد التبر بعد فترة احتكار أغلبها من طرف المغرب الأقصى²⁶. وأمام هذا الوضع، كان لابد من توقع رد فعل للسلطة المغربية تجاه

18- مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول 668-759 هـ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1)، عين الشق، الدار البيضاء، السنة الجامعية، 1988-1989 م، ص، 224-225.

19- الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص، 23. أنظر أيضا: ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 193.

Jacques. HEERS, *Le Sahara et le commerce méditerranéen a la fin du Moyen-Age*, *Annales de l'institution d'étude orientale*, Tome XVI, Année 1958, p. 251.

20- مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 225.

21- ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 145.

22- نفسه، ج 7، ص، 280.

23- ماجدة كريمة، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني (668-759 هـ / 1269-1358 م)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1987-1988 م، ص، 151.

24- ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 77.

25- مصطفى ناعمي، أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية غرب الصحراء بلاد تكنة، الجزء الأول، البحث العلمي، العدد 35، 1985 م، ص، 171.

26- عبد العزيز العلوي، العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، عدد خاص، رقم: 5، 1988 م، ص، 58.

المنافسة التي لقيتها من جيرانها العبوديين تماشيا مع القاعدة الفيزيائية المعروفة « لكل فعل رد فعل... ». فكيف تمثل رد فعل السلطة المغربية؟

إذا تم الأخذ بنظرية "أرنولد توينبي" القائلة بـ« التحدي والاستجابة »²⁷، أو بنظرية "بيير شوني" (Pierre CHAUNU) القائلة بأن توفر الوسائل والحوافز يدفعان إلى الحركة²⁸، فإن عناصر هاتين النظريتين نجدهما حاضرتين في بلورة رد فعل السلطة المغربية تجاه سلطة تلمسان؛ فبالنسبة للنظرية الأولى، كان هناك تحد من قبل الزيانيين بمحاولة تحويلهم للطرق التجارية الصحراوية المارة عبر المغرب الأقصى، قوبل باستجابة المرينيين للتحدي بغزوه تلمسان. ذلك، أن السيطرة على مجموع المحاور الطرقية التجارية، أدى دائما إلى التوسع خاصة في اتجاه الشرق، نظرا لوجود تضامن مجالي مباشر قوي مع تراب المغرب الأقصى، واعتبارا أيضا للتفوق البحري المسيحي، الذي رافقته رغبة مغربية للتحكم في مجموع سواحل هذه البلاد أو جلها، لفسح المجال « مبدئيا لتعديل الكفة لفائدة المصدر على أكثر من مستوى »²⁹.

أما بالنسبة للنظرية الثانية، فإن الوسائل تمثلت في هذه الحالة في « قوة » المرينيين خلال هذه الحقبة التاريخية. أما الحوافز، فكانت تكمن في مساس الزيانيين بعصب مداخيل حكام فاس المرتكز على « نمط المرور »³⁰، فكانت إذن الحركة التي تجلت في غزو المرينيين بقيادة السلطان يوسف بن يعقوب لتلمسان يوم ثاني شعبان عام 698 هـ/ 5 مايو 1297 م. ولا بأس هنا، من التوقف لحظة مع أحد الدارسين³¹، الذي ذهب إلى أن هذا التحرك العسكري المريني جاء نتيجة المنافسة السياسية بين الطرفين، التي شكلت، في نظره، كنه وجوهر العلاقات العدائية بينهما. ويبدو أن هذا الرأي اعتمد أساسا على ظاهر رواية ابن خلدون³²، الذي عزا حركة السلطان المذكور ضد تلمسان إلى الضغائن التي كان يحملها في نفسه تجاه يغمراسن وبني عبد الواد عموما، لما دأبوا عليه من تخذيل عزائمه، وإبعاده عن قصده³³، وأضاف إلى أسباب الحملة، الرد المهين

Abdallah. LAROU, *L'Histoire du Maghreb, un essai de Synthèse*, François Maspero, Paris, 1982, pp. 200-201.

27- الفكرة مأخوذة عن محمود إسماعيل، مقالات في الفكر والتاريخ، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1399 هـ/ 1979 م، ص، 67.

28- Pierre CHAUNU, *L'expansion Européenne du 13 au 15 siècle*, Presses universitaires de France, Paris, 1969.

29- محمد القبلي، الدولة المغربية في العصر الوسيط، آفاق، مجلة اتحاد كتاب المغرب، عدد 58، 1996 م، ص، 99.

30- للتعرف على خصائص « نمط المرور » ومعيقاته، أنظر: محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/ XIV-XV م، مساهمة في دراسة بعض مفاهيم التراتب الاجتماعي (« العامة »- « الخاصة »/ « الطبقة »-« المرتبة »)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس - أكادال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1999-2000 م، ص، 473-518.

31- محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، 1405 هـ/ 1985 م، ص، 219.

32- ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 146، 243-244.

33- يبدو أن المراد بإبعاده عن قصده، هو إعاقة حركته في الأندلس. فقبل شروع السلطة المرينية في رد فعلها تجاه العبوديين، وعيا منها بسيطرة هؤلاء على أهم مسالك تجارة الذهب، أبدت اهتماما بما سمي بـ« حركة الاسترداد » في الأندلس قصد الحصول على سمعة جيدة في بلاد المغرب، ومن ثم العمل على إرجاع الطرق التجارية إلى سالف اتجاهها، لاسيما أن الحركة المرينية لم تنطلق من حافز ديني، فكان عليها إتباع إيديولوجية شرعية متمثلة في الجهاد لتزكية سمعتها.

للسلطان أبي تاشفين على رسل يوسف بن يعقوب. وأرى أن هذين العاملين، ولاسيما الثاني، لا يعدو أن يكون ذاتيا تقلل من قيمته عوامل موضوعية سبقت الإشارة إليها؛ ذلك أن الإجراءات التي صاحبت حصار تلمسان ما بين سنوات 698-706 هـ/ 1297-1305 م، تؤكد جلها حضور الوازع التجاري فيه. فقد قامت السلطة المرينية ببعض التحركات التي تؤشر على رغبة أكيدة في السيطرة على الطرق التجارية، في أفق إرغام القوى الأوربية على التعامل معها بشكل مكثف. ومن تلك التحركات، مبادرتها للسيطرة على بعض المراكز الساحلية مثل شرشال، ومليانة، ومستغانم، ووهران، والجزائر والمدية³⁴، بموازاة مع ضرب الحصار على تلمسان. وكان بناء المنصورة، التي يرتبط اسمها بالحادثة موضوع هذا البحث عام 702 هـ/ 1302 م، أحد أهم الإجراءات التي واكبت الحصار لضرب التجارة العبودية، وتزعم المنطقة على مستوى الربط التجاري بين السودان وأوربا الجنوبية الغربية. واستطاعت المنصورة بالفعل، استقطاب النشاط التجاري لتلمسان مع البلاد الأوربية المذكورة³⁵، حيث استبحر عمرانها، ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار من الآفاق³⁶. غير أن هذا الاستقطاب لم يعمر طويلا بعد انفضاض حصار تلمسان. بل أكثر من ذلك، انتهى الحصار بفاجعة بالنسبة للسلطة المرينية تجلت في اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب. فما هي دوافع هذا الاغتيال؟

أولا : الدوافع الذاتية والتشكيك في أطروحتها.

أشارت كثير من الروايات إلى العديد من الدوافع التي كانت وراء إقدام العبد - الخصي "سعادة" على اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب؛ جاءت أولى هذه الروايات عند صاحب الذيل والتكملة³⁷، الذي ذكر أن صديقه والي أغمات³⁸، المدعو أبا علي عمر الملياني تم التنكيل به بعد أن تبين للسلطان المريني المذكور انحرافه عن مهمته المتعلقة بجباية قبائل المصامدة³⁹، وكان لنكبته ذبول من ضمنها : « فتك الخصي سعادة بالسلطان يوسف بن يعقوب سنة 706 هـ، وهذا الخصي كان مملوكا لأبي علي الملياني الذي أهداه إلى السلطان المذكور »⁴⁰. فهل يتعلق الأمر بانتقام من العبد لسيدة السابق بعد النكبة التي حلت به؟

Mohamed. KABLY, **Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen - âge, (14-15 siècle)**, préf. de Claude Cahen, Islam d'hier et d'aujourd'hui, Maisonneuve et Larose, Paris, 1986, pp. 126-132.

34- الناصري، الاستقصا، ج 3، ص، 80.

35- مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 228.

Jean. BRIGNON et autres, **Histoire du Maroc**, op.cit, p. 143.

36- ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 128، 293.

37- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 8، القسم الأول، ص، 69.

38- يرى الناصري أنه كان عاملا على مراكش، الاستقصا، ج 3، ص، 85.

39- محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ص، 92.

40- إذا كانت أغلب المصادر أشارت إلى أن العبد كان في ملكية والي أغمات أبو علي عمر الملياني، فإن ابن القاضي انفرد بنسبة ملكيته للكاتب يحيى المليي. جذوة الافتباس، ج 2، ص، 471.

تقف رواية ابن عبد الملك، الذي كان على صلة بوالي أغمات، على حوافز ذاتية، دعت العبد إلى الانتقام من السلطان. وتسير روايتا ابن أبي زرع⁴¹، وابن خلدون⁴² في اتجاه ترسيخ هذه الحوافز، مع إضافة صاحب العبر لدوافع أخرى لعملية الاغتيال سيتم عرضها في حينها. ومن جهته، ذهب ابن الخطيب⁴³، إلى أن دوافع العبد في الإقدام على فعله ذلك، تكمن في « أسفه بقتل أخ له أو نسيب »⁴⁴. فهل يمكن الاقتناع بأن أبعاد « **حادثة المنصورة** » مجرد انتقام لأسباب شخصية ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، يلاحظ أن التركيز على الدوافع الذاتية وراء الحادث لم يكن حكرا على بعض الرواة المغاربة، بل أيضا على نظرائهم التلمسانيين، الذين لم تهتم بعض رواياتهم إطلاقا بدوافع الحادث⁴⁵. وهكذا، أكد التنسي⁴⁶، أن حركة الخصي لا تعدو أن تكون استجابة لدعوة الولي أبي زيد عبد الرحمان الهزميري الأغماتي، الذي ألح على السلطان يوسف بن يعقوب لرفع حصاره على تلمسان⁴⁷، فكان لعدم استجابة هذا الأخير أن دعا عليه الولي، فما كان « إلا أن قتله أحد خصيائه يدعى **سعادة، وبذلك رفع الحصار** » !

إذن، كيف يمكن التعامل مع هذا النص المنقبي ؟ وكيف يمكن توظيفه ووضعه في مستوى النصوص الأخرى، مع العلم أن لكل نص من النصوص ما هو ظاهر وما هو مضمّر ؟ وما هو الخطاب الذي كان يهدف إلى تمريره ؟ وبمعنى آخر، كيف يمكن تحليل هذه الكرامة ؟ هل يقف الباحث منها موقف تصديق ؟ أم يتجنبها ويلغيناها ؟ أم يحيل زوائدها إلى متخيل اجتماعي ؟ أم يربط فيها بين ما هو متخيل، وما هو ممارسة اجتماعية ؟ وهل يمكن الاقتصار على هذه الكرامة كمخيل اجتماعي⁴⁸، لتفسير اغتيال السلطان، وبالتالي الكشف عن المضمون الرمزي لهذه الكرامة ؟ أم أن الأمر له أبعاد أخرى ؟

41- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص، 388. واقتنع الحريري برواية ابن أبي زرع. **تاريخ المغرب الإسلامي**، ص، 92.

42- ابن خلدون، **العبر**، ج 7، ص، 307-308.

43- ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج 4، ص، 374.

44- يلاحظ عدم تحديد الصلة بدقة بين الخصي ومالكه عند ابن حجر أيضا. **الدرر الكامنة**، ج 5، ص، 257. « **قتل له قريبا في جناية جناها...** ».

45- يحيى ابن خلدون، **بغية الرواد**، ج 1، ص، 123-124.

يبدو أن ليحيى مصدرا آخر لم أطلع عليه تحت عنوان : **تاريخ بني عبد الواد ملوك تلمسان**، ترجمه للفرنسية (A. BEL)، وصدر في الجزائر في ثلاثة أجزاء ما بين 1903 و1913 ذكر فيه بعض أسباب ودوافع الاغتيال.

Charles-Emmanuel. DUFORCQ, **L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIII^e et XIV^e siècles : de la bataille de Las Navas de Tolosa, 1212 à l'avènement du sultan mérinide Abou-I-Hasan, 1331**, Presses Universitaires de France, Paris, 1966, p. 384, note, 6.

46- التنسي، **تاريخ بني زيان**، ص، 133.

47- تجدر الإشارة إلى أن إصرار السلطان على إخضاع تلمسان واستمرار الحصار، جعلته يرفض تدخلات مماثلة، انتهت بأصحابها إلى السجن. محمد فتحة، **الأحكام والنوازل والمجتمع** : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 12 م إلى 15 م، بحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، السنة الجامعية، 1995 م، ص، 379.

48- تم استعمال كلمة « **المخيل** » و « **المتخيل** » باعتبارهما دلالات على الظن والوهم والتوقع والصور الكاذبة غير الحقيقية وما يقترن بها من عدم اليقين، أي ما ليس حقيقة صادقة تملك اليقين أو واقعا حقيقيا ثابتا.

يستحسن في بداية تحليل هذا النص المنقبي، الاستئناس بما ذهب إليه عبد الأحد السبتي في دراسته للكرامات حيث تناولها عبر ثلاثة مستويات : مستوى السياق، ومستوى النمط، ومستوى الوظيفة⁴⁹. ففيما يخص المستوى الأول، يرسخ هذا النص المنقبي حدثاً تاريخياً وقع بالفعل؛ ألا وهو اغتيال السلطان، مع العلم أن هذا الحدث داخل النص المنقبي، لم يكن مقصوداً بالتدوين، بقدر ما كان غرضه إظهار كرامات الولي أبي زيد عبد الرحمان الهزميري. وبالتالي، فإن مستوى السياق هو المستوى الذي يستفيد منه المؤرخ.

أما المستوى الثاني، فيحيلنا على نصوص منقبية مماثلة، إذ ثمة أمثلة كثيرة على اتصال بعض الأولياء بالسلطين أثناء الحروب والحصارات الخطيرة بقصد الشفاعة، والتخفيف من معاناة المحاصرين. وفي هذا المستوى، تلاحظ نمطية تبدو فيها الكرامة دائماً كمكافأة لما يسمى في التصوف بمجاهدة النفس. ونتيجة مجاهدة الولي المعني، « كوفئ » باغتيال السلطان كرد فعل لرفض هذا الأخير لطلب الولي برفع الحصار، وتتضمن هذه المكافأة أحد جوانب المستوى الثالث المتمثل في الوظيفة التربوية. فالكرامة، تكافئ القيم التي يدعو إليها الولي، عن طريق ما يسمى بعملية التهيب والترغيب، يتمثل التهيب في زجر المخالفين لقيم جماعية معينة، وهنا زجر السلطان المعتدي والنيل منه. ويتمثل الترغيب في إجابة دعوة الولي، وقضاء حاجته، وفي الترغيب في القيم. إلا أنه يصعب على مؤرخ اليوم، الاقتناع بفحوى رواية التنسي، التي سبق لمؤرخ في القرن XIX م⁵⁰ أن شكك في صحتها، دون ذكره لاسم الولي. على أن ما يضعف صحة هذه الكرامة نفسها، هو عدم ذكرها من قبل ابن تكلت، وهو الذي خصص مؤلفه للترجمة لأبي زيد الهزميري، وأخيه أبي عبد الله. فهو لم يتعرض لا للحصار، ولا لتدخل أبي زيد لدى المخزن المريني لفكه، مشيراً فقط إلى وجود أبي زيد في تلمسان دون الكشف عن وقت ذلك وسببه⁵¹. تبقى إذن ضرورة الوقوف عند رمزية الكرامة. فمن غير الخفي أن « الكرامة ليست سوى الابنة الشرعية لمجموع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي عاركها الأولياء، فهي إذن صادرة عن ذات لها همومها الخاصة، تعمل على الهروب من واقع مفروض إلى عالم الخيال الهادئ. وبذلك، تخلق نوعاً من التوازن بينها وبين واقع متحول

حول دلالات مصطلح « المتخيل »، يمكن الرجوع إلى : الميلودي شغوم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي : الحكاية والبركة، منشورات المجلس البلدي بمدينة مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1991 م، ص، 15-18.

49- عبد الأحد السبتي، قضايا في دراسة التاريخيات، مجلة أمل، التاريخ، الثقافة، المجتمع، السنة الخامسة، العدد 15، 1998، ص، 18-22.

50- « زعم التونسي أن رجلاً ممن يشار إليهم بالصلاح من أهل أغمات، جاء إلى السلطان يوسف، وهو تحت أسوار تلمسان، ورغب منه أن يرفع الحصار عن بني زيان، فرفض السلطان طلبه، فتأثر الرجل من ذلك، وانصرف وهو يقول : "سيحدث بعد حادث يكون فيه ما طلبت" ». الناصري، الاستقصا، ج 3، ص، 85.

51- أبو عبد الله بن تكلت، إثم العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين، الجزء الأول، دراسة وتحقيق، محمد رابطة الدين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1985-1986 م، ص، 37، 49.

ومنفلت. والظاهر، أن الذات الصوفية تلجأ من أجل ذلك إلى استخدام مجموعة من الرموز والصور»⁵². فما هي رمزية الكرامة المشار إليها؟

تندرج هذه الكرامة في علاقة الولاية بالسلطان، وتظهر من خلالها جراءة الولي كسلطة في التعامل مع السلطة الحاكمة، وهي تحيل على كرامات من صنف الانتقام والتأديب، اللذين يعينان حضور هاجس الانتقام والانتقام المضاد، والبحث عن طرق للسيطرة. كما يعينان انعدام الأمن، ومحاولة لخلق نوع من التوازن بين « المُنْتَقَمِ منه » و« المُنْتَقَمِ ». والانتقام هنا يتم ضد سلطة مخزنية، الشيء الذي يعبر عن ذلك الصراع، الذي كان قائماً ومستمرًا بين سلطة بيدها شؤون البلاد، وسلطة ما زالت في طور الديني، وتحاول أن تدخل في صراع مع السلطة المخزنية الحاكمة. والمطلع على تاريخ السلطة المرينية، لا يخفى عليه ذلك التعارض الذي كان حاصلًا بينها وبين فئة عريضة من الصوفية لأسباب عديدة ومختلفة، أهمها: امتناع هذه الأخيرة عن تركية السياسة الجبائية⁵³، وخاصة رفضها الصريح أحيانًا والمضمر أخرى للسياسة التوسعية نحو الشرق⁵⁴. ولا غرو، أن هذا الرفض، نبع أساسًا من وعي هؤلاء المتصوفة بالمكانة التي كانوا يحظون بها في المجتمع، باعتبارهم أهم من كان يعبر عن آراء « المراتب » المستضعفة⁵⁵، على الأقل كما أظهرتهم كتب المناقب،

52- الحسين بولقطيب، الكرامة والرمز: كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجًا، الملحق الثقافي للاتحاد الاشتراكي، العدد 449، الجمعة 24 مارس 1995 م، ص، 5.

53- محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987 م، ص، 113.

54- عبر أبو زيد عبد الرحمان الهزميري عن رفضه الصريح للسياسة التوسعية للسلطان أبي يعقوب. ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70. وعبر الصوفي الشيخ أبو هادي في مرحلة لاحقة عن رفضه لتوسع السلطان أبي الحسن المريني في إفريقيا. نفسه، ص، 51. كما أعلن أبو عبد الله الصفار عن معارضته، وإن بشكل مضمر، للحركة التوسعية لأبي عنان نحو الشرق. النميري، فيض العباب، ص، 219-220.

هكذا، يلاحظ أن التيار الصوفي تعرض لتوسعات السلاطين نحو الشرق، وكأنه أدلى بدلوه فيما يخص العلاقات بين كيانات المغرب الكبير بإعاقه حركة السلاطين تلك عن طريق الكرامة، على الرغم من أن التاريخ يفسر إخفاقهم تفسيرًا موضوعيًا مخالفًا.

وإذا كان بعض أولياء المغرب الأقصى عارضوا السياسة التوسعية للسلطة الحاكمة، فإن معارضة نظرائهم من تلمسان المعرضين للغزو تبدو شيئًا بديهياً؛ فقد حوى البستان روايتين بكرامتين مختلفتين عملتا على « وقف » زحف السلطان أبي فارس الحفصي نحو تلمسان! جاءت الأولى في ترجمة الولي سيدي الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي أبو علي الشهير بأبركان (ت. آخر شوال 857 هـ)، ووردت الثانية في ترجمة سيدي عبد الله بن منصور الحوتي بن يحيى بن عثمان المغراوي الذي كان معاصراً لسيدي أحمد بن الحسن الغماري المتوفى بتلمسان عام 874 هـ. ابن مريم، البستان، ص، 79-80، 136-137.

ويظل السؤال المطروح، أي الكرامتين كان لها الأثر على السلطان الحفصي لوقف زحفه نحو تلمسان؟! وبهذا، أظهرت كتب المناقب الأولياء كممثلين لسلطة غير عادية، ترمي إلى بسط رقابة على مستوى مجال بلاد المغرب.

محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 362. ولكي تقارع السلطة دور الصوفية المعارض لحملة يوسف بن يعقوب، لجأ هذا السلطان إلى استدعاء جد الشرفاء الجوطيين للتبرك بحضوره أثناء حصار تلمسان.

Mohamed. KABLY, *Société, pouvoir et religion au Maroc*, op.cit, p. 294.

55- تيوا الصوفية « مرتبة » اجتماعية مرموقة خلال القرن الثامن هـ/ XIV م بفعل عدة عوامل، ليس هذا

.../...

.../...

موضع التفصيل فيها. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، السفر الأول، ص، 205-215. مع الإشارة فقط إلى أن النفوذ الديني الناتج عن الصلاح، كان يكتسب خارج السلطة السياسية. عبد الأحد السبتي، المدينة الخلدونية بعد عصر ابن خلدون، ضمن أعمال ندوة: المدينة في تاريخ المغرب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية 2، الدار البيضاء، 24-26 نوفمبر 1988 م، ص، 140.

بما كانت تكلفه تلك السياسة التوسعية من مصاريف باهظة، لم تكن تجد بالمقابل انعكاسا إيجابيا لها على تلك « المراتب »، التي كان الصوفية ينطقون باسمها إن صح التعبير. بل على العكس من ذلك، كان يتضرر العديد منها من فلاحين وحرفيين وتجار، من جراء الحروب المرينية - العبودية، ولاسيما في المناطق الشرقية، التي تضرر فيها النشاط الفلاحي⁵⁶، كما طال الضرر النشاطين الحرفي والتجاري من جراء تدمير مدينة وجدة⁵⁷ في رجب 670 هـ/ فبراير 1272 م على يد السلطان أبي يوسف يعقوب⁵⁸ الذي سيتم اغتياله فيما بعد.

يظهر التعارض بين الصوفية والسلطة الناجم عن السياسة التوسعية نحو الشرق، ارتباطا بالكرامة المذكورة، وكأن الولي حاول حشر نفسه في الحدث التاريخي بشتى الوسائل، فهو الذي كان سببا في اغتيال السلطان بالدعاء عليه، ولم يكتف في هذه الحادثة بالانتقام من رموز السلطة المخزية كالولاية والرؤساء والقضاة كما يرد في بعض النصوص المناقبية، بل ينتقم من السلطان مباشرة. وبذلك يظهر، كغيره من الأولياء، وكأنهم المتحكمون الفعليون في زمام الأمور، يدخلون الهزيمة على الطرف الذين لا يرغبون فيه، أو على الذين لا ينصاعون إلى طلباتهم، وعلى الذين لا يحيطونهم بالتقدير اللازم. فلعنتمهم، هي أسلحتهم الظاهرة. أما تلك الحقيقية، فهي قدرتهم الهائلة في التأثير على أفراد المجتمع⁵⁹. إنها رغبة مكبوتة للسيطرة على الحكم، والإقرار بأحقية تأطير المجتمع، ودليل على عدم الاستقرار.

و تقدم النصوص المناقبية الولي، وهذا عن وعي من واضعي الكرامات، بأنه يقع دائما في الجانب الإيجابي، يطرح البديل، وبأن السلطة تقع في الجانب السلبي. ولهذا، توجد في النصوص المناقبية بعض التقابلات مثل تقابل الطاهر/ بالمدنس، فكل ما يتصل بالمخزن في الكتابة المناقبية ينتمي إلى عالم المدنس، الذي يعمل الولي على تجنبه (المدنس ينتمي إلى المحذور، المدنس كل ما جاء من ذوي الرئاسة في الدنيا)، والسلطة تكون ظالمة دائما، وبما أن البادئ أظلم، فالانتقام واجب. هنا، تظهر كاريزمية⁶⁰ الولي كسلطة تكتسي صبغة تفوق المعتاد، وتظهره كمنقذ، أو ككائن مثالي، يأتي في الوقت المناسب مما يجمع حوله الأتباع.

56- عن تضرر النشاط الفلاحي في المنطقة الشرقية من جراء الحروب المرينية العبودية إلى حدود عهد أبي عنان، أنظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 309-311. يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج 2، ص، 77. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 170-171. الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص، 349. الناصري، الاستقصا، ج 4، ص، 33.

57- تضررت مدينة وجدة من ذلك الصراع في مراحل لاحقة، فقد حاصرها أبو الحسن في طريقه إلى تلمسان عام 735 هـ/ 1334 م، وخرب أسوارها. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 147، 330. كما خربت مدينة توريرت بصفة نهائية عام 780 هـ/ 1368 م. الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص، 349-350.

58- الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص، 13.

59- MERCEDES GARCÍA-ARENAL, *Sainteté et pouvoir dynastique au Maroc : la résistance de Fès au Sa'diens*, *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*, 45^e année, N° 4, Juillet-Août, 1990, p. 1023.

60- « الكاريزم : نمط من أنماط السيطرة مخالف للمألوف لدى شخص يظهر ممارسة لسلطة تنتمي لما هو فوق الطبيعة، سلطة تتجاوز قدرة الإنسان أو على الأقل تتناقض مع ما هو معتاد. وهذا ما يجمع حوله الأتباع.

يمكن الانتقال في هذا السياق، من مستوى علاقة الولي مع السلطان والمخزن، إلى المجال الذي كانت تروج فيه مثل هذه الكرامات، فالذهنية المتلقية، ما أن تسمع أن الولي ينتقم من السلطان ورموز السلطة، حتى تذعن له، فتزداد الذهنية المستهلكة للكرامة في الاندحار والتأزم، ويزداد تقديسها للأولياء وارتباطها بهم، باعتبارهم الطرف الأقوى، على الأقل، هكذا قدمتهم النصوص المناقبية، عالم أوليائي قوي، وعالم مخزني ضعيف. وبهذا، تكون الكرامة « قصة هيبه فاعلة »⁶¹، تهبب السلطة والمجتمع في آن واحد؛ تهبب السلطة، بما أن الولي يردع ويتحدى وينتقم ويعفو، باعتباره أداة لتنفيذ القوة الإلهية من جهة، وبقدرته على استمالة جزء من الجمهور، وتكوين جبهة معارضة قوية ضد السلطة من جهة أخرى. وتهبب المجتمع، باستطاعتها الانتقام من أعلى رموز السلطة.

واللافت للانتباه، أن الأولياء، الذين كانوا يرغبون السلاطين في رفع حصاراتهم، أو وقف حملاتهم، كانوا يعلمون بدورهم بدنو أجلمهم أو يموتون قبلها بقليل ! وكأنهم كانوا يريدون القول : ها نحن أنجزنا مهمتنا العظمى التي كانت ملقاة على عاتقنا، بوقف حصار أو حملة. فبعد الذي جرى بين الولي أبي زيد عبد الرحمان الهزميري، وبين يوسف بن يعقوب، جاء خديمه يخبره بأن السلطان قد مات، وفرج الله على تلمسان. فرد قائلا : « وعبد الرحمان يموت. (...) فمات بعد أيام يسيرة »⁶². يلاحظ الشيء نفسه فيما جرى بين الولي أبي هادي والسلطان المريني أبي الحسن، فبعد رفض هذا الأخير لطلبه بوقف حملته على إفريقية، رجع الولي « إلى قسنطينة، وصرف أكثر أتباعه، وتحمل في نفسه ولازم خلوته ولغظ كثير من الناس أنه متوجه إلى الله تعالى في السلطان المذكور. وكان من عاقبة السلطان بإفريقية ما كان من الفساد، وذلك بعد موت الشيخ أبي هادي بأشهر »⁶³. إننا إذن أمام بعد آخر من نمطية النص المنقبي، نمطية تجعل المؤرخ يشكك أصلا في صحة الكرامة وإن كان يستفيد من سياقها لكشف الحدث التاريخي.

لم تنفرد رواية التنسي وحدها بالمنحى الكراماتي، بل تبنته أيضا رواية أخرى من الجانب الزياني، فقد جاء عند ابن مريم⁶⁴، في ترجمة سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمان القرشي التلمساني الشهير بالمقري : « ومنها، ما ذكره من عجائب أبي عبد الله القرموني في تفسير الرؤيا، أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق مع غيره من أهل تلمسان أيام حصره لها. فرأى في منامه أبا جمعة علي الجرائحي (...) كأنه قائم على سانية دائرة، وجميع أقداحها وقواديسها تصب في نقير

تدل عبارة الكاريزم على الحظوة والعاية الإلهية التي يخصص بها الله بعض الأفراد من أجل خير الجماعة التي ينتمون إليها أو لمجرد الإشارة إلى اصطفتانهم وقدسيتهم ».

أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1986 م، مادة : الكاريزما Charisme، ص، 75. مادة : القيادة الملهممة Charismatique، ص، 57.

61- Abdelahad. SEBTI, *Hagiographie et rhétorique du pouvoir*, In Les puissances du symbole, actes du premier séminaire "Du symbolique" tenu en 1989-1990 à Rabat, sous la dir. de Abdelhaï Diouri, Le Fennec, Casablanca, 1997, pp. 61-75.

62- ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70.

63- نفسه، ص، 51.

64- ابن مريم، البستان، ص، 160. أنظر أيضا : التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 424.

في وسطها. فجاء ليشرب، فاغترف الماء، فإذا فيه فرث ودم. فأرسله، واغترف، فإذا هو كذلك ثلاثاً أو أكثر، ثم عدل إلى خصّة ماء فجاء وشرب منها ثم استيقظ وهو في النهار فأخبره. فقال: إن صدقت الرؤيا فنحن خارجون عن قريب من هذا السجن. قال كيف؟ قال: الساتية الزمان، والنكير السلطان، وأنت الجرائحي تدخل يدك في جوفه فينالها الفرث والدم، وهذا لا نحتاج معه إلى دليل. فلم يكن إلا ضحوة الغد، وإذ النداء عليه، فخرج فوجد السلطان مطعوناً بخنجر، فأدخل يده في جوفه، فنالها الفرث والدم فحاط جراحته، وخرج فرأى خصّة ماء فغسل يديه وشرب، ولم يلبث السلطان أن توفي وسرح المسجونون!

هكذا، يتأكد أن كتب المناقب، أثرت التركيز على مثل هذه الكرامات، فهذا الجنس من الكتابة، كثيراً ما كان يسترجع في سرده حوادث تاريخية فعلية تهم السلاطين، لتوظيفها في أفق الإقناع، بما ينسب إلى الولي من كرامات، وقدرة على التأثير في الأحداث، ولم يكن هناك أنسب من استغلال وقائع التاريخ. فالتركيب بين أحداث معروفة لدى العموم، وكرامات الأولياء، كان من شأنه أن يرسخها، ويزيد من مصداقيتها ومصداقية أصحابها، بواسطة خطاب يخدم تيار التصوف، ويساهم في زيادة الانبهار بأهله، والاعتقاد فيهم، ونشر هيبتهم، ووقوفهم نداً أمام أقوى السلاطين وأعتاهم، الشيء الذي أهل الكرامة أحياناً، أن تزوج أكثر من الحدث التاريخي الذي ساعد على نسجها. ولعل هذه الوظيفة الإعلامية، من أهم وظائف الكرامات، وبالتالي كتب المناقب. وبهذا، أمست الوقائع التاريخية أداة من أدوات هذا الجنس من الكتابة، كأنها تريد الإقرار بأنه لا قيمة للكرامة كنسق ما لم تتجاوب مع نازلة معينة. ويمكن تصنيف بعض الوقائع التي تجاوبت مع « **حادثة المنصورة** » ضمن الكرامات التي تنتبأ بالمستقبل في سياق حدوث أزمة سياسية. مثال ذلك، نبوءة الشيخ الهزميري باغتيال السلطان أبي يعقوب المريني على يد الخصي "سعادة"، بعد رفضه لطلبه بفك الحصار عن تلمسان؛ « **إن سعادة يقضي هذا** »، أو « **سيحدث بعد حادث يكون فيه ما طلبت** ». وأفضت رؤية أبي عبد الله القرموني إلى النتيجة نفسها، زيادة على تسريح المسجونين، والتنبؤ بالمستقبل.

إذا كانت كرامات التنبؤ بالمستقبل تتضمن خوفاً منه بالدرجة الأولى، فإنه يتضمن رغبة في السيطرة عليه. ورغم أنها، تظهر مرتبطة بمستقبل فرد معين، فإن ذلك لا ينفى ارتباطها بمستقبل، وبأحلام ورغبات المجتمع ككل. فرغبات الأنا/المجتمع، عادة ما تمر في النص الكراماتي، عبر الأنا/الفرد. وتنتبأ الكرامة في هذا الإطار، زيادة على رفع الحصار، والهزيمة، واغتيال السلطان، وضمناً بمصير الحروب المرينية - العبودية، وانعكاساتها على الأوضاع في المغرب سلطة ومجتمعاً، وتظهر كأنها تطرح ضمناً بديلاً عن السلطة قبل وقوع المحذور. إلا أن هذه الكرامات، في حقيقة الأمر، تبقى انتهائية في أسلوبها، لأنها متأخرة عن الحدث، أي أنها كتبت بعد معرفة النتيجة الوخيمة التي آل إليها الحصار أو الحملة.

يعبر هذا الصنف من المضامين، عن مدى مشاركة النخبة الدينية، ومنها المتصوفة، في الحياة السياسية، وتخوفها على مستقبل البلاد. ولا يقف تخوفها عند حدود

الخوف نفسه، بل يتعداه إلى مستوى طرح الحلول، كما هو الأمر في جل النصوص الكراماتية. وحتى في تنبؤ الولي بزوال الحصار، واغتيال السلطان، وإطلاق سراح المسجونين، معناه المشاركة السياسية من قبل المتصوفة في تسيير دواليب الحكم بطريقة أو بأخرى. فالتنبؤ بهزيمة ما، هو في حد ذاته هزيمة للولي وللمجتمع، ولمواساة الأنا، يتم ترجمة الهزيمة إلى حلم وإلى كرامة، ويتم الحديث عنها كما لو أنها كانت معروفة من قبل.

هكذا، يلاحظ أن الروايات التي تم الإطلاع عليها من الجانب الزياني، وباستثناء رواية يحيى بن خلدون، التي لم تنبئ عن الطابع الخرافي بدورها كما سيتضح لاحقاً، تفوقعت جميعها في النهج الكراماتي، مما ينم عن ضعف السلطة الزيانية، وعجزها عن رفع الحصار عن طريق القوة، فكان أن تم اللجوء إلى المتخيل، الذي يكشف عن رغبة دفينية للانعتاق منه.

تدفع هذه الروايات ذات الطابع الكراماتي، التي ينزل فيها عالم الأولياء بثقله، الباحث للمجازفة بالسؤال التالي : هل كان للمتصوفة فعلاً دور في تحريض الخصي "سعادة" على اغتيال السلطان؟ يبدو أن هذا الطرح مستبعد إلى حد ما، لكون الصوفية لم تكن لهم « العصبية » اللازمة للسيطرة على السلطة بعد اغتيال يوسف بن يعقوب، كما لم يكن لهم مرشح داخل البيت الحاكم، موال لتوجهاتهم وأطروحاتهم. ومع ذلك، يبقى هذا الموضوع في حاجة إلى المزيد من التنقيب.

أما فيما يخص الرواية التي ابتعدت عن الجانب الكراماتي، فإنها جاءت بعيدة عن استساغة المؤرخ لفحواها، وهذا ما ينطبق على رواية الوزان⁶⁵، المنقولة على ما يبدو من رواية يحيى ابن خلدون⁶⁶، مما يجعل النفحة الزيانية تشتم من خلال لغتها؛ فقد أشار إلى أنه نتيجة تضرر المجتمع التلمساني من جراء طول الحصار، واستفحال الغلاء، « أحضر الملك أبناءه وإخوته وأحفاده وخاطبهم بكلمات مؤثرة، ثم ختم بقوله : إنه مستعد أن يموت شجاعاً أمام العدو بدلاً من أن يستمر في حياة دنيئة بانسة (...). فما على من يأس من نفسه مثل الشجاعة التي يأنسها هو إلا أن يتبعه غداً، فعبر الكل عن موافقته، إلا أنه لحسن الحظ قتل يوسف المريني (...) وذلك في نفس الصباح الذي تقرر فيه الخروج [!] فت الخبر في عضد المحاصرين، وعندما انتشر في تلمسان، زاد السكان جرأة وقوة وعزيمة، فخرجوا مع الملك من المدينة، وأحرزوا على انتصار لم يكن قبل في الحسبان، وقتلوا عدداً

65- الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص، 17-18. ويوجد مضمون رواية الوزان عند الناصري في الاستقصا، ج 3، ص، 86-87. ينقل فيها عن ابن خلدون، الذي ينقل بدوره عن حديث شيخه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني الأبلي (ولد بتلمسان عام 681 هـ ومات بفاس سنة 757 هـ)، فلما أخذ يوسف بن يعقوب تلمسان استخدم فكره، فقرر الرحيل إلى الحج. علماً بأن أباه وعمه خدما السلطان العبدواي يغمراسن. ابن مريم، البستان، ص، 214. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 412-413. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 1، ص، 304-305. الشيء الذي يزيد من التشكيك في صحة هذه الرواية.

66- أبو زكريا يحيى بن خلدون، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، تقديم وتحقيق وتعليق، عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400 هـ/ 1980 م، ص، 211.

كبيراً من عدوهم الذي فر شدر مذر، وغنموا أقواتاً وكمية وافرة من الماشية اضطر العدو إلى تركها. وهكذا، تحولت مجاعة الأمس إلى رخاء عظيم !

إن هذه الرواية القريبة من الطابع الخرافي - الكراماتي ليشك في مضمونها من جهتين : الأولى، أن قوى التلمسانيين من المفروض أنها منهارت بعد سنوات طويلة من الحصار عبر عنها يحيى ابن خلدون⁶⁷ بقوله : « تضاعف بتلمسان الجهد، ونفدت الأقوات، [فبلغ] عدد موتى أهل تلمسان قتلاً وجوعاً زهاء مائة ألف وعشرين ألفاً. وثمن صاع قمحهم إلى دينارين وربع الدينار، وصاع شعيرهم إلى نصف ذلك ». وزاد الناصري⁶⁸ مؤكداً أن « سائر أهل تلمسان (...) نالهم [في مدة الحصار] من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الأمم ». والثانية، ما أشار إليه صاحب "روض القرطاس"⁶⁹، المعاصر لحدث الاغتيال، وفشل الحصار، من كون الحصار لم يرفع مباشرة بعد اغتيال يوسف بن يعقوب، وإنما بعد أن وافق خليفته أبو ثابت على رفعه.

هكذا يمكن القول، إن ما استخلص من الروايات السابقة، لا يكشف سوى عن أسباب ودوافع تم نعتها بالذاتية. فما هي تلك الموضوعية، أو على الأقل الممكن اعتبارها كذلك، التي أسفرت عن اغتيال السلطان المريني يوسف بن يعقوب من قبل الخصي "سعادة"؟ وهل تسعف المصادر المتوفرة في الكشف عنها أو على الأقل عن بعضها؟

ثانياً : الدوافع الموضوعية.

إن تتبع رواية ابن الخطيب في الإحاطة إلى نهايتها، تجعل الدارس يشك في أن تكون دوافع الاغتيال ذاتية، و تلمس مدعاة الشك في الرواية ذاتها. ذلك أن العبد بعد أن نفذ مبعثه، أراد الفرار إلى مدينة تلمسان المحاصرة، باعتبارها مقراً لأعداء المرينيين، غير أنه لقي حتفه بعد تدخل رجال السلطان من حاشية وعبيد⁷⁰. والمهم في هذا القتل المضاد، أنه ألحق بقتله « كثير من بني جنسه »⁷¹. وإن كان مجهول عددهم، انسجاماً مع أزمة الرقم التي تعاني منها المصادر المغربية الوسيطية عموماً. فكيف لا اعتداء شخصي أن يتحول إلى مذبحه جماعية؟

يحيل هذا السؤال على سؤال آخر : هل تعني « حادثة المنصورة » تدخل العبيد في الحياة السياسية للسلطة المرينية، مستندين إلى كثرة عددهم، وحساسية مواقعهم؟

67- أبو زكريا يحيى بن خلدون، كتاب بغية الرواد، ج 1، ص، 210-211. أنظر أيضاً : ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 242.
68- الناصري، الاستقصا، ج 4، ص، 33.
69- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 389-390.
70- الناصري، الاستقصا، ج 3، ص، 85.
71- ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص، 357.

يرى أحد الباحثين⁷²، اعتمادا على رواية ابن خلدون، أن سبب اغتيال السلطان على يد الخصي، هو انتقام الخصيان لضحاياهم داخل البلاط المريني، في وقت أضحت علاقتهم بالسلطان بالغة السوء. غير أن هذا التخريج فيما يبدو، لا يستند إلى وثائق تاريخية تعضده. ثم إن مضمون رواية ابن خلدون، لا يحيل على تردّي مكانة العبيد، واعتقال بعضهم، إلا بربطها بالأسباب التي ستتم الإحالة عليها بعد قليل، ناهيك عن كون عبيد المخزن، لم يكونوا موحدّي الصفوف، بما أن بعضهم ساهم في القبض على منفذ الاغتيال. والمهم أن السؤال الأول، لا يُشكك فقط في ذاتية الاعتداء، بل يشكك أيضا في الداعي إليه. والراجح، أن سوء أوضاع عبيد المخزن، أو على الأقل طرفا منهم، قادتهم إلى اغتيال رمز السلطة الخاضعين لها بتدبير مشترك. وحتى ما إذا كان انتقام العبد القاتل لمقتل أخيه أو نسيبه أو لمولاه الأول، فلم يكن سوى ذريعة لتنفيذ عملية ذات بعد جماعي. وإلا، ما الداعي إلى قتل « كثير من بني جنسه »؟ فهل كان خصي بعض العبيد، وحرمانهم من بعض الخصائص الجنسية⁷³ دافعا لاغتيال السلطان؟

لا تسعف المصادر في الإجابة عن هذا السؤال بشكل صريح، غير أن استقراء بعض النصوص الأخرى، يؤكد أن إخفاء بعض العبيد عموما، كان نتيجة تداخلهم مع زوجات أسيادهم. فقد ندد أحمد زروق⁷⁴ بـ « نظر العبد لسيدته، أي يرى لأطرافها »، الشيء الذي دفعه إلى تجويز خصي العبيد، مع أن شيئا في مكانته المعرفية - الدينية، لا يستبعد علمه بأن الإسلام حرم الإخفاء، واعتبره تعذيبا لا يحل أن ينزل بإنسان أو حيوان⁷⁵. كما لم يكن ليغرب عن باله، أن بعض العبيد كانوا يلقون حتفهم أثناء عملية الإخفاء⁷⁶. ولعل هذا العامل، هو ما جعل ثمن الخصي في سوق الرقيق يبلغ سعره ضعف ثمن العبد العادي⁷⁷.

إن عملية الإخفاء كافية لوحدها على إظهار وحشية التعامل مع هؤلاء العبيد، ومنهم طبعاً أولئك الذين كانوا في خدمة حريم السلطان. وبات سبب خصيهم واضحا، فإضافة إلى احتقارهم، واعتبارهم دون الإنسان العادي، فإنهم كانوا على احتكاك مباشر بنساء القصر، وكان يُخشى منهم ربط علاقات جنسية معهن، لا سيما إذا علم أن السلطان كانت له نساء وجوار كثيرات، فلا غرابة أن تشعر بعضهن بحرمان

72- محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ص، 92.

73- لم يكن من حق العبد الزواج إلا بإذن سيده. وأفتى بعض الفقهاء بفسخ نكاح من تمرد منهم على هذا الإذن. أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، دراسة وتحقيق، أحمد بوطاهر الخطابي، طبع بإشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1400 هـ/ 1980 م، ص، 309، 311-312.

74- أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى زروق البرنسي الفاسي، عدة المرید الصادق من أسباب المقت في بيان طريقة القصد وذكر حوادث الوقت، إعداد، مجموعة من الطلبة، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989-1990 م، ص، 153-154.

75- عبد السلام الترماني، الرق، عالم المعرفة، العدد 23، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1979، ص، 97.

76- ماجدة كريمة، العلاقات التجارية، ص، 275.

77- ذكر الوزان في مرحلة لاحقة عن حادثة المنصورة، أن قيمة العبد الأسود كانت تقدر بعشرين مثقالا، والأمة بخمسة عشر مثقالا، والخصي بأربعين مثقالا. وصف إفريقيا، ج 1، ص، 174.

جنسي⁷⁸، وهو غريزة قلما تقاوم، خصوصا إذا توفرت ظروف الخلوة، وهي حالة الخصيان مع حريم السلطان. وتسير رواية ابن خلدون⁷⁹ نحو تأكيد هذا الاستنتاج، ذلك أن السلطان المغتال، تعود على أن يخلط خصيانه بأهله، « ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه ». فكان أن أقدم السلطان على قتل أحد عبيده الخصيان المدعو "العز"⁸⁰ بتهمة « مداخلته بعض الحرم ». ولعل هذا ما يؤكد مسألة الخصاص الجنسي للطرفين : الخصيان من جهة⁸¹، وحريم السلطان من جهة أخرى.

لقد جعلت هذه الحادثة السلطان يرتاب كثيرا في حاشيته التي كون العبيد طرفا منها، فأقدم على اعتقال مجموعة من الخصيان بمن فيهم عريفهم المدعو "عنبر"، « وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك، (...) وفسدت نياتهم »⁸². وبعد هذا الاعتقال مباشرة، نفذ العبد - الخصي "سعادة" اغتياله للسلطان حسب ابن خلدون نفسه. فهل بعد هذا يمكن أن يكون الدافع وراء الاغتيال ذاتيا ؟

يحفز ترجيح الدافع الجنسي لعملية اغتيال السلطان على طرح تساؤل آخر : هل تم الاغتيال باتفاق مشترك بين الخصي وبعض حريم السلطان اللواتي تضررن من اعتقال مجموعة من الخصيان ؟ وهل هن اللواتي هيأن له ظروف عملياته ؟

إذا كانت المادة التاريخية المتوفرة لا تسعف في الإجابة عن السؤال الأول، فإنها تجعل الباحث يرجح طرح السؤال الثاني. فقد أكد ابن الخطيب⁸³ أن العبد لما دخل إلى القصر حاملا مدية بيده، كان السلطان ساعته مبتذلا « بين نساء قصره، فضربه ضربة خرقت معدته ».

78- للاستدلال على ذلك، وعلى سبيل المقارنة، يمكن الإشارة إلى أن السلطان العباسي هارون الرشيد كانت له مائتا جارية، « تبلغ النوبة إلى كل جارية في مائتي ليلة، فصعد ليلة فإذا جارية تغني :

ألا يا دار كم تحو ***** ين من كس ومن غلمة

أبير واحد يشفي ***** تراه مائتي حرمة

متى يصلح طيان ***** ضعيف مائتي ثلثة

فاستدعاها واستعاد أبياتها وقال : نزيد في زيارتك، فقالت : لا أريد، أكانت كما قال أبو حكيمة :

أتت بجرابها تكتال فيه ***** فقامت وهي فارغة الجراب

فقال : لا بل لا نرد الجراب فارغا، وقام فواقعها؛ وقال لها : يا لخناء جعلتني طيانا ضعيفا فقالت : لو لم أجعلك هكذا لم أكل هذا الرغيف على هذا الجوع الصادق ».

أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، في المجون والسخف، ضمن، الجنس عند العرب، نصوص مختارة، الجزء الأول، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، كولونيا، ألمانيا، 1997 م، ص، 188-189.

79- ابن خلدون، العبر، ج 7، ص، 308. الناصري، الاستقصا، ج 3، ص، 85.

80- قد يكون العز هذا هو أخ أو صهر الخصي سعادة منفذ عملية اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب.

81- حسب المذهب المالكي، فإن العبد إذا زنى سواء كان ذكرا أو أنثى لا يضرب إلا خمسين جلدة، أما الحر فيضرب مائة جلدة. فهل كان علمهم بهذا الحكم الشرعي « المخفف » تشجيعا لهم على الممارسات الجنسية غير الشرعية ؟

Abdelaziz. EL ALAOU, *Le Maghrib et le commerce transsaharien (milieu du XI^e - milieu du XIV^e s), contribution a l'histoire économique sociale et politique du Maroc médiéval*, Thèse en vue du doctorat de 3^e cycle, Université de Bordeaux III, Institut d'Etude Arabes et Islamiques, Bordeaux, 1983, (Dactylographie), p. 235.

82- الناصري، الاستقصا، ج 3، ص، 85.

83- ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص، 270-271.

يمكن قراءة هذا الشكل من التحليل لـ « **حادثة المنصورة** » في إطار أعم ضمن التراث العربي الذي توجد فيه عقدة الخوف واضحة، خوف ذي دوافع أخلاقية ينبعث من القلق إزاء أي اختلاط محتمل بين العبيد الذكور والنساء. وهنا، يمكن استحضار مثال زوجة الملك شهريار، التي ضبطت وهي تمارس الجنس مع عبد أسود⁸⁴. إن اختيارها لأدنى العناصر الاجتماعية آنذاك لممارسة الجنس، يرتبط على المستوى الحكائي مع تيمة كيد النساء وفسوقهن. لكنه على المستوى الاستقرائي، يظهر ردا خياليا على وضع تاريخي. فمع اتساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية، أصبح عدد كبير من العبيد والإماء في ملك كثير من الأسر ومنها المغربية التي كانت تستعملهم إما للخدمة أو المتعة الجنسية والترفيه، أو استخدامهم كحرس، وفي خدمة الأرض لاسيما في الواحات، كما استعملتهم السلطة في حروبها وداخل البلاط. وعموما، فإن الأعمال التي وظفوا فيها خلال المرحلة التاريخية التي وقعت فيها « **حادثة المنصورة** »، هي موضوع آخر للبحث. ما يهم منها، أن قرب السود، الذي يفترض فيهم أنهم غلمون وشهوانيون للمرأة⁸⁵، المفترض فيها، على الأقل كما أظهرتها ذهنية المرحلة، أنها نهمة وكائنة⁸⁶، خلق أزمة للرجال المسلمين. وكان الرد التاريخي هو الحرمان كفضاء، واستعمال الخصاء. ولكن على المستوى الإيديولوجي، كان استعمال العنف ضد بعض العبيد وبعض النساء كأنه حل خيالي لأزمة حقيقية.

إن العلاقة الهوسية بين الجنس والموت والعنف عند شهريار، التي يمكن مقارنتها إلى حد ما بحالة السلطان يوسف بن يعقوب، تصير دليلا على جدلية الرغبة والخوف. والتحليلات ألما بعد حدائية للعنصرية، ومناهضة السامية والجنسانية، تبين أن « الآخر » يعطى بعدا شيطانيا لأية خاصية جوهرية، لكونه يعتبر ذاتا يفترض فيها أن تعرف. فالعبد يعرف ممارسة الجنس بشهوانية، والمرأة تعرف كيف تصل إلى مبتغاها. ويفسر هذا الوهم، الذي يعتبر « الآخر » يعرف دائما، ليس فقط بإلحاح شهريار على مشاهدة العملية الجنسية بأمر عينيه، أو اعتقال السلطان يوسف بن يعقوب لمجموعة من العبيد الخصبان بتهمة « **مداخلة بعض الحرم** »، وقتل بعضهم، ولكن كذلك بالعلاقة المتبادلة بين العنف والجنس. ويعني الجنس هنا، رغبة لا شعورية من أجل الإطلاع على السر، حين تدرك الذات أنه من المستحيل معرفة

84- **ألف ليلة وليلة**، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ص، 6. وثمة حالات أخرى مارست فيها بعض الزوجات الجنس مع العبيد كزوجة شاه زمان أخ شهريار. نفسه، ج 1، ص، 5-6. وانظر حالات أخرى في الصفحات : 15، 30-31 من الجزء نفسه.

85- حول الأسود باعتباره فردا شهوانيا وغلما في الثقافة العربية الإسلامية الوسيطية، أنظر :

Bernard. LEWIS, **Race et esclave au proche-orient**, trad : Rose Saint-James, Galimard, Paris, 1993, pp. 139-140.

86- محمد ياسر الهلالي، **نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرنين الثامن والتاسع هـ / XV-XIV م، مساهمة في تاريخ العقلية**، ضمن أعمال ندوة : **حلقاات في تاريخ المرأة بالمغرب**، مجلة أمل، التاريخ والثقافة والمجتمع، السنة الخامسة، عدد مزدوج 13-14، 1998 م، ص، 83-84.

الشيء دون إدراك أن السر يكمن في رغبة المعرفة في حد ذاتها. حينها، يصير العنف الحل الوحيد⁸⁷.

رغم أهمية التفسير المبني على العامل الجنسي لـ «حادثة المنصورة»، كدافع موضوعي لعملية الاغتيال، فإنه لا يقف بمفرده ضمن العوامل الموضوعية التي قد تفسر هذه الحادثة. فروايتا ابن حجر العسقلاني⁸⁸، وابن القاضي⁸⁹، أفصحتا عن صراع داخل البيت الحاكم، أو داخل الجهاز الحاكم؛ فقد أشار الأول إلى أن التآمر في هذه الجريمة، تم بين الخصي "سعادة" وأبي بكر أخ السلطان يوسف بن يعقوب، بدليل تنفيذ حكم الإعدام في حق هذا الأخير بسبب تأمره في هذه الجريمة. ورغم كشف هذه الرواية عن دافع جديد، يفسر بدوره عدم قيام السلطة المرينية على أسس واضحة فيما يتعلق بتداول السلطة، مما جعلها معرضة لخطر دائم، وجد صداه في كثرة الاغتيالات داخلها، إلا أنها تبقى مع ذلك ناقصة. فهي من جهة، لم تكشف عن أبعاد الصراع بين السلطان وأخيه. ومن جهة أخرى، يمكن التشكيك في مصداقيتها، لنقل ابن حجر لمضمونها عن مصدر زياني معاد للمرينيين على ما يبدو. أما الثاني، فأشار إلى نوع آخر من الخلاف داخل السلطة، فأكد أن ثمة خلافاً وقع بين السلطان يوسف بن يعقوب وحاجبه الفقيه الكاتب عبد الله بن أبي مدين حتى أن السلطان خاف منه بعد أن استولى على أمره، فهم السلطان بقتله، والفتك به، فقابل الكاتب ذلك بتحريض الخصي "سعادة" على قتل السلطان. ورغم أن هاتين الروايتين تفصحان عن خلل داخل المخزن المريني، يقربهما من الدوافع الموضوعية، إلا أن جهل ملبساتهما يبقيهما أقرب إلى الدوافع الذاتية للاغتيال.

وإجمالاً، كان اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب حادثاً مدبراً ومخططاً له نتيجة تضافر مجموعة من الحثيات التي تمت محاولة الوقوف عندها، ولم يكن أبداً « مجرد حادث عرضي » على حد قول بنسالم حميش، الذي نسب الاغتيال إلى "عنبر" عريف خصيان القصر دون سند تاريخي⁹⁰. كما لا يمكن اعتبار الاغتيال أيضاً نتيجة « قصة حريم غامضة »⁹¹.

ومهما يكن من أمر الدوافع الذاتية والموضوعية التي كانت وراء اغتيال السلطان المريني، والتي قد تكون أسهمت مجتمعة في الحادثة، كل منها حسب وزنها، فالظاهر أن ما هيأ الظروف للخصي وشركائه لتنفيذ خطتهم، إضافة إلى مساعدة بعض حريم السلطان المفترضة، هو ذلك التذمر الذي أصاب الجيش والحرس وأشياخ المرينيين من طول مدة الحصار، دون التمكن من اقتحام تلمسان. هذا ما يستشف على الأقل من « المشاورة » التي أجراها السلطان أبو ثابت بعد توليه

87- لحسن حداد، البنيات الذهنية والجنس الأنثوي : نحو أركيولوجية لكرهية النساء في الثقافة العربية، الملحق

الثقافي للاتحاد الاشتراكي، 3 يناير 1997 م، ص، 4.

88- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 5، ص، 257.

89- ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 2، ص، 471.

90- بنسالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1998 م، ص، 117.

91- محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 96.

منصب الملك، خلفا للسلطان المغتال، مع أشياخ بني مرين والعرب ورؤساء الناس بشأن حصار تلمسان، « هل يقيم على حصارها أم يرجع عنها إلى المغرب ؟ فكلهم أشار عليه بالرحيل والانصراف »⁹²، متعللين بالخطر الذي كان يدهم السلطة بفعل ثورة عثمان بن أبي العلاء في سبتة، الذي خرج منها قاصدا فاس، بعد أن تمكن من قصر كتامة، ومدينة أصيلا⁹³. إلا أن هذا الإضمار، لم يكن ليمنعهم مع ذلك من الكشف عن السبب الحقيقي لرغبتهم في الرحيل، والانصراف عن محاصرة تلمسان، إذ أضافوا قائلين : « إن الناس قد قنطوا من هذه البلاد ولهم بها أولادهم وعيالهم. (...) فسر إلى بلادك حتى تؤمنها، وتسكن جاش أهلها، وبعد ذلك تنظر فيما تريده إن شاء الله تعالى »⁹⁴. فما كان من السلطان إلا أن « امتثل » لمشورتهم على حد قول ابن أبي زرع⁹⁵. غير أن تدمير الحرس والجيش والأشياخ لم يكن ناتجا فقط على ما يبدو من طول مدة الحصار، ولكن أيضا من قرارات سياسية - عسكرية استراتيجية اتخذها السلطان يوسف بن يعقوب لتعزيز حصاره لتلمسان. فإذا ما صدقت رواية ابن مريم⁹⁶، فإن السلطان أمر بهدر دم كل من دخل إلى المدينة المحاصرة، أو عرف عليه ذلك، أو ساعد على الدخول إليها، بل وحتى من علم بذلك ولم يرفعه إليه، « وقتل على ذلك خلقا من كبار بني مرين وغيرهم ». ولعل هؤلاء استغلوا ظروف الحصار، لممارسة جملة من المضاربات، درت عليهم أرباحا مهمة، في ظل ارتفاع أثمان المواد الغذائية بتلمسان بشكل كبير، بشهادة مجموعة من المصادر⁹⁷، الشيء الذي كان يقلل إلى حد ما من فعالية الحصار. فهل كان لهؤلاء يد في تدبير عملية الاغتيال ؟

ذلك ما ذهب إليه "شارل إيمانويل ديفورك" (Charles-Emmanuel DUFOURCQ)⁹⁸، الذي عزى حادث الاغتيال المفاجئ في نظره إلى مؤامرة نابغة من داخل القصر، بعد أن أماط السلطان النقاب عن عمليات التهريب التي كانت تتم لصالح المحاصرين.

هكذا، يظهر أن النصوص التاريخية حول « حادثة المنصورة »، ورغم قصرها، فإنها توحى بمزيد من الدلالات حين محاولة إعادة بنائها في تماسك موضوعاتها، إذ يمكن اعتبارها نصوصا ولودة. والقول بأن النص التاريخي نص ولود، يعني أن الباحث بإمكانه استنباط معلومات جديدة كلما تسلح بمعطيات من شأنها أن تفضي إلى قراءة جديدة. لكن هذا القول، لا يعني التطاول على النص، لأن الأمر يتعلق بإعادة صياغة معطى تاريخي معين.

خلاصة القول، إن حصار تلمسان الطويل الذي انتهى باغتيال رأس السلطة المرينية وقتها، كان هدرا للطاقات، وازدياد نفقات السلطة، « وما يلحق بها من كلف ورسوم قد لا

92- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 389.

93- نفسه، ن.ص.

94- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 389-390.

95- نفسه، ص، 390.

96- ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70. ابن مريم، البستان، ص، 27. الناصري، الاستقصا، ج3، ص، 79.

97- ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70. الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص، 17-18. الناصري، الاستقصا، ج 3، ص، 85.

98- Charles-Emmanuel. DUFOURCQ, L'Espagne Catalane, op.cit , p. 384.

تخلو هي الأخرى من ردود متنوعة وترسبات، وعلاوة على هذا فإن الحملات التي تستغرق الشهور والسنوات أحيانا [كما هو الحال في حصار تلمسان] قد أدت عادة إلى انتقال الدولة كلها بقيادة (...) السلطان. (...) وواضح أن لطول غياب الدولة عن المركز أثرا لا يخفى على انضباط المركز واستقرار الأوضاع، ومن جهة أخرى فإن التعبئة التي تفترضها العمليات التوسعية الطويلة، قد أدت إلى تدمير الجهات المعبأة جماعات وأفرادا، ولقد حدث أن أدى هذا التدمير بدوره إلى حبك المؤامرات والانقلاب واغتيال الحاكم أو خلعته ثم التراجع والتخلي مؤقتا عن مشروع التوسع»⁹⁹. وكان الحصار المشار إليه أيضا، مقدمة لفشل المحاولات التوسعية الكبرى نحو الشرق على عهد السلطانين أبي الحسن وابنه أبي عنان، ودليلا على ضعف الأسطول الحربي المريني من جهة، ومن جهة أخرى فإن «حادثة المنصورة» تعزز «ثقافة» اغتيال السلاطين المغاربة، في إطار ما يمكن تسميته بـ«تاريخ الاغتيال أو التاريخ الدموي في المغرب» إن صح التعبير، الذي ابتدأ على الأقل بإدريس الأول، وتتابع في تاريخ المغرب الوسيط والحديث.

يبقى التساؤل المطروح : هل استفادت السلطة التي توالى عليها حكم المغرب من هذا الاغتيال السياسي - الاجتماعي، وهل استحضرت ذهنيتها التاريخية في أفق تفادي حادث مماثل¹⁰⁰ ؟ ذلك مشروع بحث أو بحوث لاحقة، قمينة بأن تولى عناية الباحثين إليها.

99- محمد القبلي، الدولة المغربية في المغرب الوسيط، ص، 100.

100- فقط، يمكن الإشارة مبدئيا إلى أن «حادثة المنصورة» لم تكن سلاطين بني مرين عن استعمال العبيد كخدم في قصورهم، وأثناء تنقلاتهم وحروبهم. العمري، مسالك الأبصار، ص، 109، 145. النميري، فيض العباب، ص، 234، 497.